جندي

في

جيش الباشا

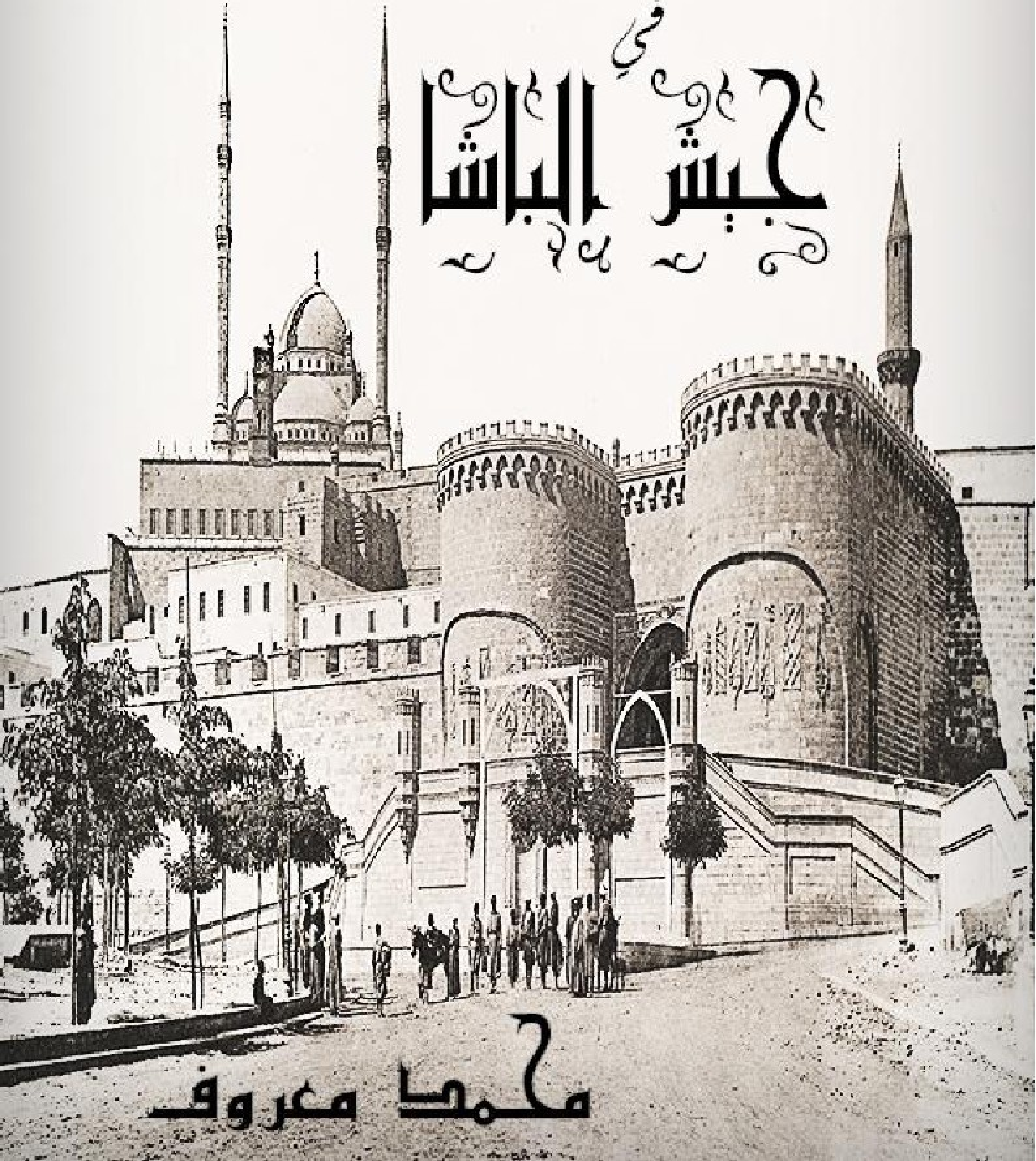

محمد معروف

صورة الغلاف: 'مدخل القلعة' للمصور هنري بيشار ١٨٨٧
مجموعة مكتبة نيويورك العامة
Henri Béchard, Entrée de la Citadelle, 1887
New York Public Library, Digital Collections

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
© محمد معروف

maarouf.author@outlook.com
Facebook.com/M.Maarouf.Author

مايو ٢٠١٦

خضعت الأرض و أهلها لسلطتهم المطلقة، و كانت الكلمة العليا لهم دوما.

تعالت الأصوات المتوترة، فخرج ثلاثة صولات من خيمتهم ليزأروا في الجنود محذّرين و مهدّدين، ليتشتت الجَمع من فورهم.

لكن لم تمر سوى دقائق معدودة حتى جمع القائد جميع أفراد الآلاي بنفسه، هذه المرة ليلقي إليهم بالأخبار الكارثية مباشرة. الجيش المصري سينسحب من الشام، بالأحرى بدأ الانسحاب فعليا. الأسطول البريطاني قام بضرب بيروت و قضى على حامية الميناء تماما، و الأخبار تؤكد بدء عملية إنزال جنود بريطانيين. من باكر سيقوم الآلاي بجمع العتاد و طيّ الخيام (في خلال يوم واحد على الأكثر)، و من ثمّ التحرك فورا نحو الجنوب، ليلتقي بالآلاي العاشر عند مدينة بعلبك و سويا سيتحركون جنوبا تجاه مدينة دمشق.

خرج مندوب الآلاي - حامل الأخبار - و الوجوم لا يزال على وجهه المُغبّر.

كانت حالة الاضطراب عامة و مشاعر التوتر عارمة..

وصل مندوب الآلاي[1]، قادما من عند الباشا – القائد العام - ليدخل من فوره إلى خيمة القائد، دون أن يرشف رشفة ماء أو حتى يلتقط أنفاسه. لم يردّ على تساؤلات الضباط و الجنود المتلهفين، لكن الوجوم الظاهر على وجهه كانت يحمل ما يكفي من أخبار.

تجمع الجنود حول خيمة القيادة، ليتسمّعوا الأخبار و الأوامر القادمة من القيادة المركزية.

أطلّ جندي حراسة خيمة القائد برأسه، و همس لأقرب المتنصّتين. الأخبار أسوأ مما يتوقعون.. لقد جاء الخبر من الباشا بالأوامر الصادمة: الانسحاب الفوري و السريع!

علت الهمهمات في جميع أنحاء المعسكر، و ظهر الفزع في أصوات و وجوه المقاتلين الشبّان. ما معني هذا؟ لقد لبثوا هاهنا تسعة أعوام كاملة. صحيح أنها لم تكن سنوات هادئة، لكن، برغم كل شيء،

[1] وحدة عسكرية تساوي 'اللواء' حاليا

توجّه إلى خيمة ضباط الصف ليغير ملابسه و يستريح. عند دخوله الخيمة، كان أحد الصولات يخرج لاستلام مناوبته. هتف به هازئا

- حمد لله على السلامة يا بومة الشؤم..

تطلع مندوب الآلاي، رسول الأنباء السيئة – الباش شاويش مجاهد – لزميله بعينين غائمتين، ثم ردّ التحية في عدم اكتراث. تناول كوز ماء ليروي عطشه، ثم التقط رغيف خبز جاف تركه أحدهم فوق طاولة الدفاتر. جرّ قدميه إلى الداخل، باحثا بعينيه في أنحاء الخيمة المعتمة. ألقى بجسده المتعب على فراش بدون ملاءة و هو يقضم لقمة الخبز في غير شهيّة. أتاه صوت هامس في الظلام من فراش قريب.

- ما الأخبار؟ سبع أم ضبع؟
- ألم تسمع من مرقدك الميرالاي[٢] و هو يتلعثم بالأخبار؟
- لا أقصد هذا يا أحمق.. أقصد موضوعنا.

تلفّت مجاهد حوله في الظلام ثم تطلّع إلى مدخل الخيمة الهادئ. همس

---

٢ رتبة عسكرية تساوي 'عقيد'

- سبع..

اعتدل صاحبه في جلسته و همس في حماس

- عظيم! متى ستكون إذا ساعة الصفر؟

التفت مجاهد ناحية صاحبه، ثم طوّح برأسه بعيدا و قد اضطرب داخله بفعل ذكرى الأحداث المتلاحقة في حياته، خصوصا في الفترة الأخيرة..

****

إن التغيير الذي أصاب مجاهد حتما عظيم..

كيف لا و قد جاء إلى الحياة ابنا بكريا للحاج عبد الكريم عمدة قرية الحمايمة، تلك القرية الهادئة جنوب مدينة بنها. كان ذلك الفتي الوسيم الرزين، الحافظ لعشرة أجزاء من القرآن الكريم و المتمكّن من القراءة و الكتابة، حسن الثياب و الهندام، يخطف الأنظار دونا عن أترابه من أهل القرية. كيف لا و هو ابن الاسرة الكريمة و الذي يتوقع له أن يحلّ على رأس القرية - عمدةً خلفا لأبيه بعد عمر طويل- و أن يتزوج من أجمل الفتيات و أكرمهنّ نسبا، لينجب رهطا من البنين و البنات، يكمل بهم الذرية الصالحة لعائلته العريقة.

لم يكن متوقعا أبدا أن يكون هاهنا مكانه، و لا أن ينتهي به الحال في هذه الخيمة الجرداء، على هذا الفراش المهترئ. لكنها "الجدعنة" اللعينة! فوالده، و حتى يكون شهما مع أهل بلدته، قام بمساعدة بعض فلاحي القرية على الهروب من التجنيد الإلزامي، و بالتستّر على آخرين كانت تبحث عنهم سرية التجنيد. لكن سرعان ما ألقي القبض على هؤلاء الشباب وتم تسليمهم للـ"حكومة"، ليعترفوا جميعهم على العمدة الذي ساعدهم على الهروب.

و عقابا للعمدة على عصيان أوامر الوالي، تم تجنيد ابنه الأكبر، لتبدأ رحلة مجاهد في خدمة جيش الوالي.. ستة عشر عاما مضت، و يعلم الله كم من سنوات أخرى بقيت.

كانت السنة الأولي في 'الجهادية' صعبة قاسية، خصوصا على من كان مثله من أرباب المنزلة العالية و الحياة السهلة اللينة. لكن، بفضل تربيته – لأنه كان يُجهّز لعمادة القرية و رئاستها - كان مجاهد شخصا يعتمد عليه، قليل التذمر، لذا استطاع أن يكسب احترام صف الضباط، بل و أن يحظى كذلك بثقة الضباط الأرناؤوط و الشراكسة - لذا حصل على الترقية لأومباشي[٣] في وقت قصير

[٣] رتبة عسكرية تساوي 'عريف'

نسبيا. بعد الترقية تحسّن وضعه داخل الجيش، و بالتالي تحسنت معيشته بشكل معقول. صحيح أن شظف الحياة و قسوة الميري بقيت كما هي – إضافة إلى رفقة الفلاحين المذعورين الشكّائين و الضباط المتعالين المتعجرفين - لكن حياة الجيش فتحت لمجاهد نافذة رحبة على الحياة، لم تكن لتوفرها على الإطلاق معيشته في الريف المصري الغافل عن العالم من حوله.

بعد مرور ثلاث سنوات على انضمام مجاهد للجيش، ألفى نفسه و قد انحصر سخطه على سوء حظه الذي ألقى به إلى هذه الحياة الشاقة الجافة. بل و بمرور الوقت، وجد نفسه و قد صار فخورا بانتمائه لهذه القبيلة المهيبة، و بكونه أحد تروس هذه الماكينة العملاقة التي لا يجرؤ أحد على الوقوف أمامها. بانتمائه للجيش، حاز هيبة إضافية و اكتسب خبرات صقلت شخصيته و أنضجتها كما لم يكن يتصوّر يوما.

انبهر مجاهد بالعالم الخارجي: بالمدن التي دخلها الجيش و بأهلها المختلفين عن أهل قريته؛ أحيانا كان الاختلاف هامشيا في بضع سلوكيات، و أحيانا أخرى كان القوم يختلفون كلية عن قومه - في

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب
او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

المأكل و المشرب و الحياة اليومية، بل و في تفسير و تطبيق الدين الإسلامي نفسه.

.. لكنه أيضا انبهر بالشخصيات العظيمة.. خصوصا شخصية ذلك القائد الفذّ، و الذي كان من حظ مجاهد أن خدم تحت لوائه مباشرة في أكثر من مناسبة.. إنه إبراهيم باشا. ذلك القائد الأسطوري و المُخطط العبقري الذي لا يشبهه أحد، لا في الذكاء و الألمعية و لا في الشجاعة و بُعد النظر. صحيح أن الرجل كان قاسيا، متحاملا على ضباطه و جنوده في كثير من المواقف و تحت أسوأ الظروف، لكن مجاهد، خصوصا في المرحلة الأولى، التمس له كل الأعذار و اعتبر كل صفاته – الحسنة منها و البغيضة - خصالا أساسية في أولي الأمر من القادة و الحكام، حتى يستقيم شأن الأفراد و الشعوب من تحتهم.

بلغت ذروة انبهار الباش شاويش مجاهد بقائده الأسطوري في حملة المورة باليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٨). كان ساعتها في قمة الحماسة و النشوة – بل و الفخر - و هو يقاتل في جيش الباشا و تحت راية الخلافة الإسلامية. أصيب مجاهد إصابة بالغة في صدره، لكنه لم يبالي، و لم يطلب العودة إلى مصر. استلم النيشان الذي وصله من

مصر في امتنان، و ما إن استطاع الوقوف على قدميه مرة أخرى حتي ألقى بنفسه في أتون المعركة دون تواني، حتي قبل أن تلتئم جراحه تماما.

لكن هالة القُدسية و البطولة التي أحاطت بإبراهيم باشا (و بالتالي بجيش المحروسة) - في نظر مجاهد - ثُقبت و أصيب جدارها الصلب بشرخ عظيم عندما انهار الاسطول المصري أمام أسطول الأوروبيين (الانجليز و الفرنسيين و الروس) في موقعة نافارين. سمع عشرات التبريرات (بل و ردّدها بنفسه للأفراد الأقل رتبة) – و كلها بالمناسبة كانت منطقية و مقبولة، مثل: أن الإفرنج اتحدوا عن بكرة أبيهم هذه المرة لنصرة اليونانيين النصارى لوقف تدفق جيش المسلمين إلى أوروبا مرة أخري - أن سلطان العثمانيين خذل الباشا، حقدا عليه و حسدا له – أن التعزيزات المطلوبة لو وصلت من الاسكندرية في الوقت المناسب لتغلّب الأسطول المصري - و غيرها من الأعذار و التبريرات الكثير.

لكن من داخله لم يقتنع مجاهد تماما. صحيح أن إبراهيم باشا قائد محنّك و كُفء، و أن الجيش منضبط و مجهّز و شديد الفاعلية على الأرض.. لكن نتيجة المعركة أكّدت بما لا يدع مجالا للشك أنه لا

إبراهيم باشا و لا جيشه هم الأفضل في العالم كما كانوا يردّدون على آذانهم طوال الوقت (و إن كان بطريقتهم المبهمة، الغير مباشرة). لقد جُرحت هالة القدسية و البطولة الأسطورية و الكمال التي كان يرسمها مجاهد في مخيلته للقائد و للجيش، و سرى الشك إلى قلبه، و إن كان خافتا في هذه الفترة المبكرة.

لكن إبراهيم باشا و والده الوالي - الأسطوري بدوره هو الآخر- محمد علي باشا، لم يستسلما للهزيمة، و سرعان ما بنيا الجيش المصري مرة أخرى، و سرعان ما انطلق الجيش و الأسطول الجديدان إلى هدفهما الجديد.

لكن هدفه هذه المرة لم يكن بلاد الكفّار.. بل قلب الخلافة نفسه – بداية بغزو فلسطين و الشام، وصولا إلى قلب الأناضول التركي نفسه.

هذه المرة الصدمة كانت أقوى و أقسى.. صدمة معنوية و أخلاقية عنيفة.. جيش المسلمين يحارب مسلمين آخرين! سمع مجاهد عشرات التبريرات مرة أخرى، و ردّدها بنفسه من جديد، من مثل: الأتراك يبخسون العرب حقوقهم - السلطنة و الخلافة تحت حكم السلطان الأحمق سرعان ما ستزول و ستُسلم أرض المسلمين لقمة

سائغة للأوروبيين المتربصين، و لولا خوف محمد علي باشا على الخلافة لما قام بما يقوم به. لكن مجاهد هذه المرة لم يصدّق على الإطلاق – و لا حرفا واحدا. بل و لا حتى عندما استقبل السوريون الجيش المصري بالترحاب في أول دخوله أرض الشام أواخر عام ١٨٣١.

في السنة الأولى لغزو الأراضي السورية، لم يكن انحسار إعجاب مجاهد بالجيش و بقائده الأسطوري يعني كرها لمشاركته في أعمال الجيش المصري بالكامل. فقط انطفأ الحماس الذي لازمه طوال سنوات خدمته السبع السابقة - للباشا و الجيش، و لوظيفته العسكرية نفسها.. بالنسبة لمجاهد، لم يعد جيش الوالي ممثّلا للمؤسسة العسكرية المثالية، و بالطبع فقد مكانته كمنظومة أخلاقية معصومة من الخطأ. فقدت وظيفته في الجيش تلك المرتبة المقدّسة التي كان يفخر بها ليل نهار – مرتبة مجاهد في سبيل الله. لم يعد كما السابق مقبلا على كل الوقائع الحربية. أصبح يحرص على حياته و ينأى بنفسه عن المخاطر ما استطاع إلى ذلك سبيلا. صارت وظيفته في الجيش مجرد مهنة لا تتميز عن غيرها من المهن.

لكن صدمته الحقيقية بدأت مع حكم المصريين الفعلي لسوريا، أرضا و شعبا. نقض إبراهيم باشا نظام الحكم العثماني في ولايات الشام الأربع، ليستبدله بحكم آخر، أشدّ فاعلية و كفاءة - حكم الحديد و النار. لم يكن خطاب التعبئة و الأوامر هذه المرة موجّها إلى المصريين، بل إلى الشعب السوري. لم يكن الباش شاويش مجاهد و رفاقه من ضمن الجماهير المقصودة كما كانوا من قبل، بالعكس، أصبحوا جزءا من العرض المسرحي. وجود مجاهد خلف الستارة هذه المرة، أتاح له أن يرى الوجه الآخر للسلطة. كانت تلك حقبة كاشفة، أتاحت لمجاهد أن ينتبه لمجريات الأمور، و أن يُقيّم بنفسه طريقة حكم الباشا الأكبر، محمد علي باشا، في مصر، و الذي اتّخذ منه إبراهيم باشا مثالا يمشي على منواله – حكم ليس الغرض منه كما كان يتمّ تلقينهم: النهوض بالمسلمين عامة و العرب خصوصا، ليتّحدوا في أمة موحدة قادرة على التصدي للأخطار المحدقة بها من كل جانب. لا، لم يكن الغرض من إصلاحات و تحديثات الباشا و ابنه - سواء التعليمية أو الاقتصادية أو التنموية – النهوض بالبلاد و العباد.. كل سياقات الأحداث – من فرض احتكارات اقتصادية شاملة إلى تجنيد إجباري و سُخرة الأهالي في أعمال الحكومة إلى تنكيل دموي بثورات الطوائف - أوضحت الحقيقة جلية لمجاهد.

كانت كل طاقات البلاد موجهة لبناء كيان واحد فقط.. بناء 'جيش' قوي، مدرب و مجهز على أكمل وجه، و في نفس الوقت مطيع، كُفء، يعتمد عليه.

لكن ماذا وراء هذا الجيش الجرار، المثير للإعجاب و الفخر؟

بمطالعة الكتب التاريخية و العسكرية القليلة المتاحة و باسترجاع تاريخ أوروبا القريب، و بمقارنته بما يحدث على أرض الواقع، انتبه مجاهد إلى الحقيقة المجرّدة: كل ما كان يقوم به محمد علي باشا و ولده لم يكن يختلف عما كان يفعله ذلك الفاتح الفرنسي الشهير، نابليون، في أمم أوروبا عندما كان يغزو شعوبها، مدّعيا حمله رسالة الحرية و المساواة. كان محمد علي باشا – كما الجنرال الفرنسي – يبني مجده الشخصي و ملكا يورثه لأبنائه من بعده.

و ما المقابل الذي يحصل عليه هو و زملائه: الراتب و رتبة تعلق على الكتفين (لن تصل به يوما لمصافّ الضباط)، و نيشانا إن أصيب إصابة بالغة أو فقد طرفا من أطرافه.

و بتوصّله لهذه النتيجة لم يستطع مجاهد أن يقبل بالتضحية المقدسة – لا بروحه و لا بأرواح عشرات الآلاف من الفلاحين - تحقيقا لأهداف الباشا التي لن تعود عليهم بأي طائل، و لا أن يكون أداة من

أدوات هذا الحكم القاسي الظالم، الذي يكرر فعلته مع السوريين هذه المرة.

الغريب في الأمر هو أنه كان تقريبا الوحيد صاحب وجهة النظر هذه، أما الغالبية الساحقة من أقرانه فكانوا يرفلون في نعيم السيطرة و السلطة التي أصبغتها عليهم وظيفتهم العسكرية، إضافة إلى زهوهم و افتخارهم بالفوقية المطلقة، فوق العثمانيين و بطبيعة الحال أهالي الشام.

لقد هوت مكانة الجيش في قلبه من مرتبة الحب و التقديس، لتتراوح في منطقة خليط من الاعتزاز بالحياة العسكرية و الضيق و النفور من قسوتها و بيروقراطيتها، بل و تدنّت في كثير من الأحيان إلى البغض الصريح، لبطشها و قهرها للبلاد و العباد.

و كم كانت تضايقه تلك المشاعر، بل و تؤلمه أشد ما يكون الألم. و كم من ليال مرّت عليه و هو يرجو من الله أن يستردّ سذاجته الأولى و حبه الأعمى للجيش كما كان من قبل.. عندما كان يصحو و يغفو بعقل و قلب متعلقين بساحات المعارك، و حماس لا ينضب للجهاد في سبيل الغايات الكبرى.

لكن هيهات..

لم يهوّن عليه تلك الأيام الصعبة سوى رفيق الجهادية و الجندية، الشاويش عبد الجليل المنفلوطي..

عبد الجليل، و على النقيض الكامل من مجاهد، شخص قليل الحظ في التربية القويمة و الأصل الطيب – بل لقد حرمهما تماما. فهو، و كما كثيرين غيره من المجرمين المحتميين بجبال الصعيد، شخص لقيط لا يعرف له أب أو أم، ربّاه قطّاع الطرق و صار واحدا منهم.

في إحدى الهجمات الفاشلة لعصابته على قرية الغنايم، إحدى القري القريبة من أسيوط، تصدّي لهم الأهالي و تم القبض عليه هو و بعض رفاقه. بدلا من الزجّ به في السجن، تم شحنه مباشرة إلى المدرسة الحربية في بني عدي. ابتسم له القدر عند توزيعه بعد مرحلة التدريب، ليكون تحت إشراف الباش شاويش مجاهد، ليحظى بالمعاملة الكريمة و الصُحبة الطيبة. و بانصرام الشهور و السنين و توالي المعارك، ضربت أواصر الصداقة بين الرجلين المختلفين كلية في كل شيء. فعبد الجليل، و برغم انخراطه في الجيش ما يربو على العشر سنوات، لم يزل يحتفظ بروحه المتمردة و ركونه إلى نزعات الشقاوة، بل و الشر المطلق في أحيان كثيرة. فبرغم

قِدمه في الخدمة العسكرية و ترقّيه فيها، لا يزال لعبد الجليل بعض تصرفات عدم الانضباط التي تُرى في العساكر الجدد؛ فتارة يهرب من خدمته الليلية، و تارة أخري يتجاهل الأوامر العسكرية المُغلّظة، بل و يقوم بسرقة حبات الفواكه و الخضار مع صغار الجنود في أثناء المرور على أسواق الأهالي.. بل و بلغت به الجرأة في إحدى المرّات أن تغيّب عن الوحدة شهرا كاملا (ادّعى أنه تاه في طريق العودة من أجازته، لكن حقيقة الأمر أنه أمضاه في أحضان غجرية في عكّا، و لم يعد إلا بعد أن ملّها و افتقد صحبة زملائه في الآلاي).

لكن مجاهد و برغم كل مساوئ عبد الجليل، كان يحبه و يحافظ على صداقته، فروح عبد الجليل المتمردة و مرحه اللامحدود و إقباله على الحياة، كان مما يجذب المرء إليه، لما لصحبته من ترويح عن القلب من شظف الحياة العسكرية و مللها المقيم.

و بمرور الوقت، وجد مجاهد في قاطع الطريق السابق أكثر من رفقة الأنس و السمر، فقد اكتشف في عبد الجليل صفات الرجولة و الشهامة - إضافة بالطبع لذكائه البري و حكمته الخشنة المكتسبة من حياته السابقة - ما جعله بمرور الوقت صديقا حقيقيا لمجاهد و مستودعا لأسراره.

لذلك كان قراره بإشراك عبد الجليل في مخطّطه منطقيا. و لسوف تثبت مجريات الأحداث، بما لا يدع مجالا للشك، كم كان هذا القرار حيويا و حاسما فيما ما ستؤول إليه الأمور.

****

برزت الخطة في عقل مجاهد قبل شهر، أثناء قيامه بمأموريته الدورية إلى مركز القيادة في دمشق. كان ينهي الورقيات المعتادة عندما قابل البكباشي[٤] الشركسي أحمد أفندي فوزي، أحد قادته السابقين في موقعة "قونية" الشهيرة (ديسمبر ١٨٣٢)؛ تجمعهما أواصر ودية متينة بحكم زمالة السلاح، و بفضل إنقاذ مجاهد للبكباشي من دانة مدفعية عثمانية كادت ترديه قتيلا في معمعة المعركة. بعد إتمام المهام الإدارية، أصر الضابط - كعادته مع مجاهد كلما التقاه - على اصطحابه إلى منزله و دعوته إلى الطعام. و كعادته أيضا قصّ الضابط على مجاهد - المتلهّف دوما للمعرفة

---

[٤] تساوي رتبة 'مقدم'

- آخر الأخبار.. لكن هذه المرة، ألقى البكباشي الأخبار بوجه مكروب و قلب مفجوع.

برغم النصر المبين للجيش المصري العام المنصرم في نزيب (يونيو ١٨٣٩) و قضائه المبرم على جيش العثمانيين، إلا أن الضغوط الدولية على الباشا في مصر ازدادت بصورة غير مسبوقة، و اتفقت القوى العظمى الخمس على إجبار الباشا على الانسحاب من الشام و الحجاز. طوال العام الماضي و الباشا يماطل و يتجاهل المراسلات، لكن كما يبدو من تحركات القوى العالمية، لم تعد المماطلة ممكنة بعد الآن، فقد وصلت الأخبار إلى القيادة المصرية بأن الاسطولين الإنجليزي و النمساوي في طريقهما إلى الموانئ السورية و المصرية. أكد البكباشي فوزي، بحكم قربه من مركز قيادة إبراهيم باشا نفسه، أنه بوصول الأساطيل الأوروبية سيكون وضع الجيش المصري غاية في الحرج. فجيش الباشا، رغم تدريبه العالي و تجهيزه العسكري الممتاز، لا يستطيع أن يحمي كل الثغور و لا أن يقاتل على جميع الجبهات. ثم أنه لو صمد و قاتل القوات الأوروبية المتطوّرة في الشام، فإنه قد يُستنزف إلى حد كبير، بدرجة تهدّد قدرته على حماية مصر ذاتها. الخلاصة، سيكون الأمر مجرد

وقت قبل خروج الجيش المصري برمته من الشام. أبدى مجاهد الحزن و الحسرة المتوقعان و واسى البكباشي بكلمات مقتضبة.

لكن بعد انقضاء المأمورية، و في طريق عودته إلى وحدته الرابضة على تخوم مدينة حلب، شعر مجاهد بالراحة لأول مرة منذ فترة بعيدة. أخيرا سينتهي الوضع الشائك الذي كرهه، و أخيرا سيعود إلى وطنه. كان مرتاحا لرجوعه إلى مصر، أملا في استكمال خدمته العسكرية التي ألفها – بل و أحبها فيما مضى - دون تنغيص ضميره. لعل بنادق الجيش و مدافعه لا توجّه إلى صدور المسلمين مرة أخرى.. ربما ضد قوة أوروبية متكافئة، أو على الأقل نحو براري أفريقيا و سكانها من عبدة الأوثان.. أي شيء، الأهم هو ألا يتسلط على رقاب العباد مرة أخرى. بل من يدري، لربما قام الوالي و ابنه بتدارس الأخطاء و تصحيحها، و لربما توصلا للعيوب الحقيقية هذه المرة!

تخيّل مجاهد للحظة لو أن الوالي المُعظّم محمد علي باشا أو ابنه القائد المغوار إبراهيم باشا استمعا اليه - أحدهما أو كلاهما - و لو ساعة واحدة من الزمن، ساعتها لانصلح كثير من شأن الجيش المصري.

لكن سرعان ما نفض مجاهد الأوهام عن عقله، و انتبه إلى الأهم: بقرب عودته إلى مصر، تحتّم عليه القيام بتلك 'المهمة' فائقة الأهمية، التي ينبغي القيام بها قبل الرحيل عن أرض الشام - برغم ما يكتنفها من مخاطر كبيرة و خسائر محتملة.

عاد مجاهد أخيرا إلى وحدته، سلّم أوراقه للضباط و تناول الطعام مع زملائه و استراح بضع ساعات. و بحلول الليل، لكز صاحبه عبد الجليل ليخرج معه إلى الصحراء، ليستلقيا عند سفح هضبة قريبة، يتطلعان للنجوم و يدخّنان التبغ الملفوف.

قصّ مجاهد على صاحبه أخبار الأساطيل الأوروبية المقبلة و الانسحاب الوشيك من سوريا. لم يبدو على عبد الجليل كثير من اهتمام. *هذه الأرض كغيرها من الأراضي.*

لكن مجاهد فاجأه

- إذا صدق خبر البكباشي، و أتت إلينا الأوامر بالانسحاب، فسوف نمرّ حتما على مدينة حمص في طريق خروجنا من سوريا.

- نعم.. هي على بُعد مسيرة يومين من معسكرنا هاهنا.. لكننا ساعتها لن نضطر لدخول المدينة بالطبع، سنمرّ على مشارفها..

- هل تعرف الشيخ عماد الطرابلسي؟

- تقصد شيخ تجار مدينة حمص؟

- هو نفسه..

- ماله؟

- عندما مرّت إحدى أورطات[٥] الآلاي بمدينة حمص قبل ثلاثة أعوام، قام الشيخ عماد بدعوة ضباط و صف الضباط الأورطة إلى منزله على مأدبة طعام.. الحق يقال، الرجل أكرم وفادتنا.. طعام و شراب، و حفل طرب استمر حتى الساعات المتأخرة من الليل.

- لا أتذكر هذه الزيارة.. أين كنت أنا؟

- كنت في مهمة بيروت، تلك التي استمرت قرابة العام..

- طول عمري حظي فقر.

---

[٥] وحدة عسكرية تساوي "كتيبة"

- بالفعل، لقد فاتك الكثير. الرجل في غاية الثراء، و بيته مزدان بأجمل الأشياء و أثمنها.. الأبواب و الجدران مؤطرة بالتراكيب الخشبية البديعة و المطليّة بماء الذهب، الوسائد المحشوة بريش النعام و الطنافس الزاهية.. بل إن عنده غرفة خاصة، يجمع فيها كل ثمين اقتنصه في رحلاته التجارية العديدة إلى شتّى بقاع العالم.. أهمها على الإطلاق جوهرة هندية زاهية لا مثيل لها، أهداها له المير 'أكبر علي' حاكم حيدر أباد شخصيا. لم أستطع أن أرفع عيناي عنها ساعتها، و لم أستطع أن أنساها منذ يومئذ.
- ماذا تقصد؟ هذا الحوار غريب عليك يا مجاهد.

أكمل مجاهد متجاهلا صاحبه

- طلبت من الشيخ عماد الحصول عليها بأي ثمن، لكنه نظر لي باحتقار و قال إنها ليست لأمثالي.
- ما الذي ترمي إليه يا مجاهد؟

التقط مجاهد نفسا عميقا ثم زفره في توتّر. خفض رأسه

- ما رأيك في أثناء مرورنا بالقرب من مدينة حمص، ننتظر حتى تهدأ الحركة في المعسكر ثم نتسلّل إلى المدينة، ندخل

بيت الشيخ عماد و نسطو عليه. أنا أحصل على الجوهرة، و أنت تحصل على ما شئت من نهيبة، أموالا كانت أو مقتنيات.

- لا أصدق ما أسمعه.. هل أنا أحلم، أم أن لوثة جنون أصابت عقلك؟

عبث مجاهد ببضع حصوات دون أن يجرؤ على مواجهة صاحبه. غمغم و قد تلعثمت كلماته

- البيت مُسوّر و لا يتشارك مع أي من البيوت المحيطة بأية جدران. بفضل خبرتك القديمة، سنعتلي السور و نصعد إلى أعلى المنزل عن طريق الشونة، ثم نهبط على أهل البيت عبر باب السطح إلى الدرج. سنوثق أيديهم و نكمّم أفواههم، ثم نأخذ غرضنا و ننصرف على الفور.
- ماذا لو تعرّفنا أحد من أهل البيت أو المدينة؟ ماذا لو أبلغوا عنا؟
- نكون ساعتها قد ابتعدنا عن المدينة و سيكون الشام و حكم المصريين كله نسيا منسيا..
- ماذا لو أرسلوا لقيادتنا في القاهرة؟

- تقصد من سيرسلوا؟ العثمانيون؟ لا أظن.. ثم حتى لو فعلوا، هل ستصدقهم قيادة جيشنا أو تعيرهم أي اهتمام..
- و أين سنحتفظ بالمسروقات؟
- في الصحراء خارج المدينة، من الممكن أن نخبىء الأشياء في بقعة نعرفها جيدا، تحت صخرة أو في شق في جبل..
- ما فائدة السرقة إذا كنا لن نستطيع أن نحتفظ بالمقتنيات الثمينة؟
- سنعود إليها بعد الاطمئنان إلى هدوء الأمور.
- و متي سيكون هذا؟
- في إحدى إجازاتنا المعتادة، يعود أحدنا إلى المكان و يستردّ الحاجيات.

هزّ عبد الجليل رأسه مصدوما. لم يكن مستنكرا لفكرة السرقة، لكن اندهاشه كان من صاحب الفكرة و مصدرها. لم يستطع استيعاب هذا التغيير الكبير الذي ألمّ بصاحبه.. متى حدث؟ و لماذا حدث أصلا؟

****

أفاق مجاهد من استرجاعه لأحداث الشهر الماضي. مضت الأيام بسرعة، و تحققت أخبار البكباشي. وصلت الأساطيل الأوروبية و

قصفت بيروت و عكا. تم استدعاء الباش شاويش مجاهد إلى مركز القيادة، ليعود حاملا الأوامر بالانسحاب.

.. و بالتوازي، ليبدأ في خطته المخيفة.

كتم حسرته و هلعه، و تمالك نفسه. تطلّع في ظلام الخيمة بحثا عن وجه صاحبه عبد الجليل، الذي أعاد سؤاله مرة أخرى.

- متى ستكون ساعة الصفر؟
- سيتحرك الآلاي بعد غد تقريبا.. و سنصل إلى حمص في غضون يومين أو ثلاثة..
- و هل فعلت ما اتفقنا عليه؟
- نعم.. في طريق عودتي مررتُ على مدينة حمص لمراجعة بيت الشيخ عماد، ليس هذا فقط، بل و دخلت البيت كذلك. ادّعيت أني كنت أمرّ على المدينة مودّعا.
- يالجرأتك يا أخي.. لماذا دخلت إلى البيت؟
- مضي وقت طويل منذ مررت على ذلك البيت، ثم أنك تريد معرفة كافة تحصينات المكان. ليس هناك أفضل من دخول البيت نفسه.
- كلام معقول..

- ثم بعد ذلك خرجت إلى صحراء شرق المدينة، حيث يمكث البدو الذين أخبرتني بشأنهم. التقيت الشيخ صفوان، و اتفقت معه على تدبير حصانين و ردائين من ملابس العربان و بضعة سيوف و خناجر. ابتداء من بعد غد، سينتظرنا كل يوم عند شجرة سنديان معينة على مخرج المدينة المتجه إلى بلدة الفرقلس، من منتصف الليل حتى مطلع الفجر.
- عظيم.
- كما قمتُ باستكشاف أطلال بلدة قديمة مهجورة كنتُ قد سمعتُ عنها سابقا.. بها خرائب و آثار و بقايا أمم سابقة، تشبه خرائب قوم زنوبيا في مدينة تدمر.. عرجتُ على تلك الخرائب و عثرتُ على بقعة ممتازة لتخبئة الحاجيات..
- أحسنت يا مجاهد.. أنت مجرم بالفطرة. إذا ما تركنا خدمة الجيش يوما، لابد لنا من إنشاء عصابة.
- توقّف عن هذا الكلام.. لن تكون هناك مرة أخرى. أنت تعرفني مدة عشر سنوات كاملة.. لم أسلك طريق الإجرام من قبل و لن أسلكه ما بقي من عمري. هذه المرة فقط.

شاكسه عبد الجليل هازئا

- هذه المرة ستكون الأولى و الأخيرة؟
- بالضبط.
- هيهات..

انكسر مجاهد، لكنه لم يجرؤ على معاتبة صاحبه أو مجادلته.

و في اليوم التالي، قضى جميع أفراد الآلاي اليوم بطوله في حزم المتاع و جمع العتاد و تنكيس الخيام و طيّها. و بظهور الضوء الأول في صباح اليوم التالي تحرك الجيش المصري تاركا مدينة حلب وراءه.. هذه المرة إلى الأبد.

بعد يومين من المسير، وصلت أفواج الآلاي أخيرا عند مدينة حمص. عند مغيب الشمس، أمر القائد بالتوقّف خارج الأحراش الواقعة عند أطراف المدينة. نُصبت الخيام على عجل و ألقى الجنود أجسادهم المتعبة على الأرض ليستسلموا للنوم على الفور.

لكن في خيمة صفّ الضباط، تحامل اثنان على التعب و قاوما سطوة النعاس. انتظرا حتى هدأت الحركة تماما في المعسكر، ثم تسلّلا في هدوء و خفة بعيدا عن أعين الحراسة الليلية.

و في خطوات مهرولة، قطعا الطريق إلى مشارف المدينة الشرقية، و هناك و كما الاتفاق انتظرهما الدليل تحت شجرة السنديان. أبدلا ثيابهما على عجل و خبّآ الأسلحة في طياتها، امتطيا حصانين و انطلقا مخترقين شوارع و أزقّة المدينة الهادئة في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

لم يكن لديهما رفاهية الوقت و الحذر. يجب أن تتم المهمة في أسرع وقت، و أن يعودا إلى المعسكر قبل أن تشرق الشمس و يُكتشف اختفاؤهما.

عند الاقتراب من الهدف، و لتجنّب لفت الانتباه، أبطآ سير الحصانين ثم توقّفا تماما عند رأس الشارع المستهدف. ترجّلا عن الحصانين و ربطاهما بجذع شجرة قريبة. تسلّلا نحو منزل الشيخ عماد الطرابلسي في خطوات خفيفة، تسلّقا السور ثم انسلّا إلى الشونة، اعتليا سقفها المنخفض و منه إلى سطح المنزل. و كما في الخطة هبطوا بغتة على ساكني الدار الغافلين. و بفضل خبرة عبد الجليل و سطوته، استطاعا السيطرة على الخدم و أهل الدار و تقييدهم و تكميمهم في سرعة و حنكة. بسرعة انطلقا يجوسان في أنحاء

المنزل: مجاهد بحثا عن جوهرته، و عبد الجليل بحثا عن كل ما له قيمة سواها.

ملأ عبد الجليل – اللص المحترف – جواله الخيش بكل ما خفّ وزنه و غلا ثمنه، ثم هتف مناديا صاحبه المختفي في إحدى غرف المنزل البعيدة

- يا زُمل، يجب أن نتحرك..
- حاضر
- هل وجدت مستهدفك؟
- أمهلني بضع دقائق.
- سأسبقك إلى الخارج و أحضر الأحصنة عند الباب.. الحقني بسرعة.

اندفع عبد الجليل إلى الخارج، مهرولا نحو الشجرة عند رأس الشارع. ثبّت الجوال جيدا فوق حصانه، ثم فكّ رباط الحصانين و تحرّك بهما نحو مدخل البيت. هتف بصوت مكتوم

- هيا..

تداعت إلى أسماعه أصوات الخطوات المتسارعة. و من باب البيت خرج مجاهد، حاملا مفاجأته الكبرى..

- من هذه؟

هتف عبد الجليل في ذعر و هو يشير إلى الفتاة التي سحبها مجاهد من ورائه.

- إنها جوهرتي..

أمسك عبد الجليل رأسه و قد انفجر الصداع في أنحائها.

****

عضّ عبد الجليل شفته كاظما غيظه و هو يتطلّع إلى الفتاة ضئيلة الحجم، المستندة في استكانة إلى شجرة السنديان، متقوقعة على نفسها، تضمّ برقعها على وجهها و أطراف ثوبها بكلتا يديها، لتحمي نفسها من الرياح الشديدة في تلك البقعة المهجورة.

- ماذا عسانا نفعل بهذه الفتاة؟
- ليس نا، بل أنا! سأتزوجها بالطبع.
- و لما لم تطلب يدها من أبيها كما يفعل باقي البشر.
- قلت لك سابقا أن الشيخ عماد الطرابلسي رفض..

- قلت لي إنه رفض أن يعطيك جوهرة خلبتك لبّك..
- هي جوهرتي..
- لا.. لقد خدعتني و كذبت عليّ كذبا عظيما..
- لم أستطع أن أخبرك الحقيقة.. كنت سترفض مساعدتي..
- و هل هناك من أكاذيب أخرى؟

صمت مجاهد و لم يردّ. راوح عبد الجليل في مكانه، يكاد ينفجر غيظا و قلقا

- و كيف ستتصرف الآن؟ هل ستعود بها للمعسكر؟
- بالطبع لا.. الشيخ صفوان الذي جلب لنا الثياب و السلاح سيتصرف..

و بالفعل، و بعد وقت قصير من الانتظار، هلَّ عليهم الأعرابي مرة أخرى، لكن هذه المرة فوق جمل، تركب من ورائه امرأة عجوز. استلم الأعرابي منهما الثياب و الأسلحة و الحصانين و استلم أجرته، في حين أخذت السيدة العجوز بيد الفتاة و أركبتها معها فوق الجمل. تبادل مجاهد بضع كلمات مع الأعرابي، ثم انطلق الأخير ليقود قافلته الصغيرة بعيدا.

توغّل مجاهد و عبد الجليل في عمق الصحراء الشرقية ناحية أطلال البلدة الأثرية المهجورة. بعد التجوّل بين الخرائب الأثرية، توقّفا عند سفح هضبة صغيرة تحت معبد قديم كان قد استكشفه مجاهد جيدا في زيارة سابقة للمدينة. من الناحية الجنوبية للهضبة، شقّ يقود إلى كهف صغير مهجور، يبدو من النقوش على جدرانه أنه كان يستخدم في خدمة المعبد في تلك العصور الغابرة. أشعلا نار صغيرة و بحثا في أركان الكهف حتى وجدا بقعة مناسبة. حفرا لعمق معقول ثم دفنا المسروقات، أهالا عليها التراب، و غطياها بصخرة مناسبة. و من فورهما انطلقا عائدين إلى المعسكر.

و قبيل آذان الفجر بدقيقتين كانا يمرقان إلى داخل المعسكر، دون أن يشعر بهما أحد.

****

كانت رحلة عودة الجيش إلى مصر، طويلة شاقة و باهظة التكاليف.. جوع و عطش، إضافة إلى الفوضى العارمة التي ضربت المدن و القري بفعل خلوّ السلطة.. هجم البدو و أهالي الطوائف على جنود الباشا المنسحبين، لينتقموا من أسياد العقد المنصرم الذين

تحكّموا فيهم و أذاقوهم القهر و المذلّة.. و ليفقد الجيش في رحلة العودة المشؤومة هذه الآلاف من جنوده.

و في ١٩ فبراير ١٨٤١، أخلى جيش الباشا مدينة غزة نفسها، لينتهي آخر حكم للمصريين في بلاد الشام و فلسطين.

و بعد حصر الخسائر و إعادة التوزيع، تمركز الآلاي – بالأحرى ما تبقى منه – عند المدرسة الحربية في بني عديّ، على الضفة الغربية من النيل.

و بعد شهرين من العودة حصل مجاهد على أجازته الأولى.

متلهّفا، حمل أغراضه و غادر الثكنات ليتحرك مع قافلة الجمال الذاهبة إلى مدينة أسيوط، و من هناك ركب مركبا شراعيا هابطا نحو الشمال، إلى الحمايمة، قريته القابعة على ضفاف النيل، فرع دمياط.

استقبلته القرية، و على رأسها والده العمدة، بالزغاريد و ذبح العجول و الخراف، ابتهاجا برجوع الابن بعد غيبة خمس سنوات كاملة منذ آخر زيارة.

لكن مجاهد، و قبل أن يستريح تماما من وعثاء السفر، أخذ أخته من يدها ليستقلّا حنطورا من اسطبل والده، و لينطلقا إلى أطراف مدينة بنها القريبة، حيث يقيم مجموعة من البدو الرحّالة. ترك اخته بالعربة، و توغّل في مخيمات العربان، بحثا عن سيّدة معيّنة يعرفها بالاسم. خرجت له امرأة عجوز تسأله عن بغيته، فطلب منها استرداد الأمانة - و سرعان ما خرجت له الجوهرة المكنونة، ابنة شيخ التجار، في أتمّة استعدادها و قد خفضت برقعها لتطلّ عليه بوجهها بدرا في كماله.

خفضت رأسها حياءً، لكنها همست في ثبات

- ألا زلت مستعدا للقيام بما اتفقنا عليه؟
- نعم..
- ستقوم بهذه التضحية حقا؟
- أكيد.
- لا تستحق ما سيصيبك، و أنا لا أستحق أن تضحّي من أجلي.. لكني أقسم لك أن المرحوم يستحق كل تضحية.
- مستعد أن أضحي من أجلك بكل غالي و نفيس..
- و أنا سأكون مدينة لك مدى الحياة..

- لا داعى لهذا الكلام الآن.. لنتحرك قبل أن تغرب الشمس..

أخذها إلى العربة ليجلسها إلى جوار أخته، و ليعودوا من فورهم إلى القرية. و هناك عرّف مجاهد أسرته بالعروس التي ينوي الزواج منها: فتاة سورية من أسرة كريمة، مات عنها أهلها و وافق عمها أن تتزوج منه، لكن مجاهد أجّل الزواج حتى يتمّه في عرس كامل في قريته، حتى تقرّ عيون أهله و أهل القرية بعد غيبته السنين الطويلة.

عُلّقت الزينة و أقيمت الولائم، و جاء اليوم المشهود.

حضر المأذون و اجتمع القوم. و لأن العروس بلا وكيل، فقد تبرّع شيخ مسجد القرية بالوكالة عنها في عقد القران. و في اللحظة المنتظرة، استأذن شيخ المسجد على مجلس النسوة ليدخل و يأخذ الموافقة الشفهية بقبول العروس الزواج من الباش شاويش مجاهد ابن العمدة عبد الكريم.

طالت غيبة الشيخ عن الدقائق المتوقعة.. طالت كثيرا. أخيرا قرّر العمدة الذهاب بنفسه إلى مجلس النسوة و استطلاع سبب الغيبة. من الداخل أتته أصوات نحيب و صراخ غريب. طرق العمدة الباب في قلق، فخرج له الشيخ و قد امتقع وجهه.

- خيرا؟

هزّ الشيخ رأسه في غضب و ضيق شديد و هتف

- ليس خيرا على الإطلاق؟
- لما، كفي الله الشر..
- الفتاة تدّعي انها اختطفت و أنها من جواري إبراهيم باشا ابن الوالي..

كانت صدمة عظيمة و كارثة لا مثيل لها.. خصوصا لمسئول مثل العمدة، مسئول أغضب السلطات منذ ستة عشر عاما عندما آوي المتهرّبين من الخدمة العسكرية.. و الآن يتجرأ ابنه و يخطف جارية من جواري القصر!

بالطبع أُلغى الزفاف. حاول العمدة تكتّم السبب الحقيقي و تعلّل بأعذار لم تنطلي على أي من الحضور. صمت المدعوون احتراما، متظاهرين بالاقتناع و انصرفوا في هدوء. لكن، و قبل أن يصل أحدهم إلى بيته، تعالت الأسئلة و ثابر كثيرون حتى توصّلوا إلى الحقيقية. و سواء كان شيخ المسجد الحانق أم بعض النساء الثرثارات في مجلس النسوة، فالأمر سيّان. المهم أن السر انكشف و انتشر في أوساط القرية.

لم تكن تلك الكارثة الحقيقية. الكارثة الحقيقة كانت في خروج السر إلى خارج القرية.. خصوصا إلى تلك الوحدة العسكرية القريبة.

****

نزل الشاويش عبد الجليل من الفلوكة الصغيرة إلى ضفة النهر، ثم دفع حساب رحلته إلى صاحب المركب. حمل متاعه القليل فوق ظهره، و ما كاد يقطع الطريق حتي فوجئ أمامه بمرور فوج عسكري صغير من صفّ ضابط و ثلاثة عساكر يركبون الخيول. دقّق النظر في الصول الراكب فوق الحصان الأشهب – رجل أربعيني ذو شارب خفيف و ابتسامة قاسية منحوتة على وجهه اليابس.

نادى عبد الجليل

- صول الغندور، أهذا أنت؟

جذب الصول لجام حصانه ليوقفه و تطلّع إلى عبد الجليل.

- من؟ شاويش عبد الجليل؟ ماذا تفعل هنا على بُعد مئات الفراسخ عن وحدتك؟

- جئت لحضور فرح الباش شاويش مجاهد.. أعلم أني تأخرت، و أن مراسم الزفاف لا شك قد انقضت، لكن قائد الآلاي لم يسمح لي بالإجازة إلا منذ يومين. لكني لا يسعني إلا أن آتي، على الأقل حتى أبارك لصديقي العزيز.

كان الصول الغندور يستمع إلى عبد الجليل و قد اتسعت ابتسامته الساخرة

- مالك في غاية السعادة هكذا يا صول غندور؟
- كيف لا و أنا في طريقي إلى ذات الوغد الذي تقصده..
- أذاهب أنت أيضا لتبارك له؟
- لا، لأقبض عليه.

أصابت الصدمة عبد الجليل و قد جال في خاطره أن أمرهما قد انكشف.

- تقبض عليه؟ لما، ماذا فعل؟
- المغفّل اختطف إحدى جواري إبراهيم باشا و كان ينوي الزواج بها.

اختلّ توازن عبد الجليل و قد حار في قصد الرجل. أبدي اندهاشه و عدم تصديقه، لكنه لم يسترسل في الحديث مخافة الوقوع في كذب مفضوح. استأذن الصول لينصرف، لكن الرجل أوقفه في جلافة

- إلى أين يا ناصح؟ هل تظنني أحمقا حتى أتركك لتسبقني إلى صاحبك و تحذّره من حضورنا للقبض عليه؟
- أسبقك و أنا أسير على قدميّ و أنت و عساكرك تركبون الخيل!
- لا أستطيع المخاطرة يا فالح.. هيا اركب مع أحد العساكر و ابق تحت عيني حتى ألقي القبض عليه.

خوفا من جذب شكوك الصول نحوه، انصاع عبد الجليل و ركب مع أحد العساكر.

لكن خوف الصول لم يكن في محلّه على الإطلاق. فهناك، في بيت العمدة، كان مجاهد في بيت أبيه منتظرا و قد أتته منذ البارحة خبر تحرّك القوة العسكرية للقبض عليه. لم يكن العمدة ذاته ليسمح بهروب ابنه، لم يكن يجرؤ على مخالفة الحكومة و إغضابها مرة أخرى.

ما إن انفتح باب الدار و دلف الصول و أتباعه إلى الدوّار - و ظهر من بينهم صاحبه عبد الجليل - حتى تهلّل وجه مجاهد و زال عنه كل كرب. احتضن صاحبه في قوة

- حمدا لله.. كنت قد فقدت تماما الأمل في وصولك..
- لقد أكّدت عليّ بالحضور، و لأجل خاطرك تشاجرت مع قائد الوحدة أسبوعا كاملا حتى أُذن لي أخيرا بالحضور..

جذب مجاهد صاحبه ناحية إحدى الغرف الداخلية

- أحتاج أن أختلي بك دقيقتين.

لكن الصول الغندور تدخّل. فرّق بينهما في عنف

- ابتعدا عن بعضكما البعض..

صرخ عبد الجليل في وجه الغندور

- عار عليك يا صول أن تعامل رفاقك في الجهاديّة بهذا الصلف و تلك الدناءة..

لوى الغندور وجهه هازئا

- و ما أدراني؟ لعله يحرّضك على تخليصه و تهريبه؟
- عليك اللعنة يا صول.. الرجل كان ينتظرك في داره.

- كونه أحمقا مرة، لا يعني استمرار حماقته إلى الأبد.

سلّم عبد الجليل على صاحبه مرة أخرى و استأذن منه و من أهله في الانصراف قبل أن يبدأ الجنود في تقييد صاحبه. لكن الصول الوغد استوقفه مرة أخرى

- إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى ستين داهية.. مالك انت؟
- ستذهب إليها بالمشيئة.. لكن ليس الآن.. ستأتي معي حتى أسلّمه إلى سجن المركز..
- لماذا؟!
- و ما أدراني لعلك تنصرف من توّك و تجمع بعضا من عصابتك، أبناء الجبل، ثم تقطع علينا الطريق و تقوم بذبحنا و تخليص صاحبك.. لا، لن تنطلي عليّ خدعك تلك..

تطلّع عبد الجليل في ذهول إلى وجه الصول الغندور المتألق في سعادة و انتشاء. هزّ عبد الجليل رأسه و قد أدرك أخيرا ما كان يبدو واضحا منذ البداية.

- أتدري يا غندور؟ أنت لست مجرد أحمق يطيع الأوامر و يأخذ بالحيطة كما تدّعي. بل أنت إنسان حقير يستمتع بإذلال صاحبي

هذا.. تريد أن تذلّه أمام أهله، و من ثمّ أمامي طوال الرحلة حتى إذا ما عدت إلى وحدتنا رحت أتحاكى لكل رفاقنا بمأساة مجاهد و ذلّه العظيم على يديك.. كل قسمات وجهك القذر تنطق بهذا..

كركع الصول الغندور بالضحك حتى بانت أسنانه الخربة و تطاير اللعاب من فمه. ربّت على بطنه راضيا.

- لا يهمني أن أؤكد أو أنكر ادعاءاتك هذه.. أنا هنا أنفذ القانون..

ثم أمر بإحضار الجارية، فأحضروها و أركبوها حمارا من ملك العمدة حتى لا تضطر للركوب مع أحد الرجال. ركب مجاهد – و هو مُقيد – مع أحد الجنود، و عبد الجليل مع آخر، و من خلفهم العسكري الأخير جارّا وراءه حمار الجارية.

و انطلق الركب جنوبا نحو المركز في مدينة قليوب.

****

بعد ساعات من السير تحت أشعة الشمس الحارقة، و بعد أذان العصر بساعة أو نحوها، مرّ الركب بتبّة عالية تطلّ مباشرة على النيل، قرر الصول الغندور أن يتوقفوا لالتقاط الأنفاس.

في حركات خرقاء رمى الجنود المُتعَبين بنادقهم إلى الأرض، ثم راحوا يربطون الخيل إلى جذوع بعض النخلات في تراخ و كسل. لطم الصول الغندور رؤوسهم و ركل مؤخراتهم عقابا على استهتارهم و زجرا عن المزيد من التراخي. صعد التبّة و هو يهتف من ورائه

- جهّزوا لي النار و الشاي.. بسرعة يا كَحول أنت و هو..

قبل بلوغه القمة، حانت منه التفاته نحو الجمع من تحته: عبد الجليل و مجاهد - اثنان من صفّ الضباط المخضرمين في الخدمة - في مقابل ثلاثة جنود مستجدّين. لا توازن هاهنا، حتى بوجود السلاح مع الجنود الثلاثة. أشار الغندور إلى عبد الجليل مداهنا

- اطلع معي يا شاويش عبد الجليل نشرب بعض الشاي.. على الأقل، حتى لا تقول أننا لم نكرم وفادة زميلنا في الخدمة..
- لا أطلع و لا أشرب حتى نأخذ مجاهد معنا.. أليس هو أيضا زميلك في الخدمة يا صول؟

كاد الغندور يرفض من فوره، لكنه لم يشأ المخاطرة. هو على الأقل أكثر حنكة من الجنود المستجدّين.

- لا بأس، لكنه يظل في قيده.

صعد الغندور، يتبعه عبد الجليل مسندا صاحبه مجاهد. جلس ثلاثتهم في ظل شجرة جمّيز ضخمة تتوسط قمة التبّة الضيقة. المنظر في تلك الساعة من اليوم كان خلّابا: الشمس تغرب في النهر العريض، و في الجو نسمة لطيفة.

و في غضون دقائق قليلة صعد أحد العساكر، أشعل النار و وضع عليها برّاد صفيح مملوء بالماء. صنع الشاي و قدّمه في ثلاثة أكواب خشبية، ثم نزل إلى أسفل مرة أخري.

ارتشف الغندور الشاي في خلو بال، و التفت متشفّيا، يراقب عبد الجليل و هو يسقي صاحبه المقيد. هتف متهكّما

- أنت من يفعل بنفسه كل هذا يا مجاهد.. تنسي دائما مكانك على السلم.. ليس معني أنك ابن عمدة أن تناطح الضباط و الباشاوات العثمانلية في حقوقهم.. أولا و أخيرا، أنت مصري.. فلاح من الآخر.

رمقه مجاهد بعينين جريحتين و ارتشف الشاي في صمت. أكمل الغندور محاضرا إيّاه في أبوية متعالية

- عدم عقابك في المرة السابقة بطريقة مناسبة هو ما جرّأك يا مغفل.. في الأول تنسي نفسك و تنافس ضابط أرناؤوطي، و الآن تتجرّأ و تختطف جارية من جواري ربيب نعمتك، إبراهيم باشا نفسه.. يا لك من جاحد..

التفت عبد الجليل إلى الغندور ثم إلى صاحبه

- منافسة ضابط أرناؤوطي! عما يتحدث هذا الصول؟

قهقه الغندور

- صديق عمرك لم يخبرك بهذه القصة؟ أين كنت؟ آه.. حتما كنتَ في بيروت وقتئذ..

انتبه عبد الجليل لتطابق الفترة الزمنية، لكنه لم يفضح معرفته. تحدث مسايرا الغندور في حديثه

- ماذا حدث مع ذلك الضابط الأرناؤوطي؟
- حضرنا ذات مساء على مائدة طعام الشيخ عماد الطرابلسي، شيخ تجار مدينة حمص. الرجل عزمنا على الطعام، تقرّبا و تزلّفا للجيش و لإبراهيم باشا. الباشا اعتذر عن الوليمة، لكنه أرسل وفدا حتى لا يحرج الرجل. عشرة ضباط و خمسة من

ضباط الصفّ. كنت أنا و هذا المقيّد أمامك من ضمن هذا الوفد.

- ثم؟

- ثم أولمنا الرجل.. وليمة لا بأس بها على الإطلاق. المشكلة أن ذلك التاجر المغفّل لا يستر حريمه في الحرملك كما ينبغي. كبير الضباط من وسط الحضور، الميرالاي حشاد الأرناؤوطي، لمح ابنة هذا التاجر و أعجبته جدا. بعد العشاء تقدّم بطلب يد الفتاة مباشرة و كله ثقة أن طلبه لن يردّ، فهو قائد حامية المدينة، و من الآخر أرواح كل التجار في يده بالفعل. لكن بدلا من الردّ على الضابط مباشرة، ادّعي رب البيت أنه لا بد من استشارة الفتاة و أخذ رأيها. استأذن و غاب قليلا بالداخل. و بالفعل، أحسسنا بظلال و حركات من يراقبنا من الشرفة العلوية التي تطّلع على المجلس. بضع دقائق، ثم عاد شيخ التجار معتذرا للضابط أن الفتاة قد رفضته. لا نعرف بالطبع سبب الرفض، هل لسنّ الميرالاي الكبيرة، أم لملامحه المخيفة؟ المهم، كان ذلك الرفض كارثة على شيخ التجار، ذلك أنه و طوال الأسبوعين التاليين، كان الميرالاي حشّاد يخطّط

و يدبّر بكل ما أوتي من قوة حتى ينتقم من الرجل. ثم حدثت الطامة الكبرى، التي أطارت عقل الرجل.

- ماذا حدث؟
- صاحبك المغفّل هذا ذهب طالبا يد نفس الفتاة من أبيها!
- و هل وافق؟
- لا.. رفض أيضا، لكن بعد أن استمهله ثلاثة أيام.. رفض القائد الأرناؤوطي في عشر دقائق، لكنه انتظر ثلاثة أيام قبل أن يرفض الفلاح المصري.. إهانة ليس بعدها إهانة..
- تبّا لك و لضباطك الأرناؤوط..
- بل تبّا لك و لكل الفلاحين الذين ينسون أنفسهم..

صمت الغندور، مرتشفا الشاي في ضيق. رفع مجاهد رأسه و هتف في تحدّي

- لما لا تكمل القصة يا صول؟

رماه الغندور من فوق كوبه بنظرات نارية. التفت عبد الجليل نحو صاحبه

- بقيّة؟ هل للقصة من بقيّة؟

- كيف لا؟ ألم يقل لك أن ما حدث كان طامّة كبرى و ذنب لا يغتفر. أتظن أن الموقف كان ليمرّ دون حساب و عقاب؟

تركّزت العيون على الغندور. ارتشف الشاي في لامبالاة مصطنعة و همس

- لم يحدث شيء.. كلها شائعات..

هتف مجاهد

- شائعات قوية جدا.. مفادها أن الصول الغندور ذهب في منتصف إحدى الليالي حالكة الظلام، و زار شيخ التجار بعد أن أوى كل أهل بيته إلى مضاجعهم. احتدّ الصول الغندور على الشيخ عماد و ضربه، ثم قذف به من فوق درابزين الدرج، و لم ينصرف إلا بعد أن تأكّد من وفاته.

حدجه الغندور بنظرات نارية، ثم سيطر على نفسه و ارتشف مرة أخرى

- شائعات مغرضة.. الرجل كان عجوزا خفيف العقل. لقد تعثّر في الدرج و سقط على رأسه و مات.. لا يوجد شاهد أو دليل واحد على تلك الشائعات الحقيرة..

- الفتاة المقصودة شهدت عليك..

- شهادتها مجروحة، فعقلها طار من فرط الحزن على والدها، ثم إن الخدم شهدوا أنها كانت تكره الجيش المصري و تُفرط في عداوتها له دون مبرّر.

- لكن الشائعات تقول إن قاضي التحقيق نفسه لم يصدّق قصتك أيضا.. و الدليل هو طردك من وحدتك، و إبعادك تماما عن الشام و إعادتك إلى مصر بعد الحادثة مباشرة، بل و نفيك إلى وحدة حقيرة لا غاية منها إلا مطاردة المتهرّبين من الخدمة..

رمى الغندور بكوبه في ضيق

- لنفضّها سيرة، و لنخض في موضوع غيره.

ثم قام من مكانه، ليقضي حاجته عند كومة صخور بعيدة.

و أخيرا، أدرك عبد الجليل كل أبعاد الموضوع..

لقد أساء الظن بصاحبه أول الأمر عندما طلب منه القيام بعملية السطو، ثم شكّك في سلامة قواه العقلية عندما اختطف الفتاة. كان يظن أن الحياة العسكرية بقسوتها و ضغطها العصبي، خصوصا في السنوات الأخيرة، قد غيّرت شخصيته و حوّلتها جذريا، لكن اتّضح

أن العكس هو الصحيح. لم تكن تصرفاته سوى تعبير صارخ عن الحالة المأساوية التي تعانيها روحه المتطلّعة للطُهر و المثالية، حالة تكتنفها مشاعر عارمة من الحب و الحسرة و الندم.

التفت عبد الجليل إلى صاحبه في إشفاق. همس

- حقك عليّ يا صاحبي.. لم أتخيل حجم المعاناة و لا حجم التضحية التي تقوم بها..
- لا بأس.. فليرحمني الله برحمته.
- ماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك؟
- لقد فعلت ما بوسعي فعله.. الباقي عليها. ستنتظر حتى نتوقف عن المسير و نبيت. ساعتها ستتحرك و تقتله و هو نائم.
- خطأ فادح..
- سنهرب بعد ذلك عائدين إلى الشام..
- سيُلقى القبض عليكما بأسرع مما تتصور و ستعلّقان من المشانق..
- لقد قُضي الأمر..
- لا، ليس بعد.. اترك الأمر لي.

عاد الغندور، و أخذ يصبّ لنفسه كوب شاي جديد. تطلّع عبد الجليل إلى الصول و قال في غموض

- فلنتحدث في موضوع آخر كما قلت يا صول غندور.. هل تعلم أن الفتاة التي كان سيتزوجها مجاهد ليست ملك إبراهيم باشا على الإطلاق؟ إنها حرّة أبا عن جد..
- و ما أدراك أنت؟
- أنا صاحبه و خازن أسراره، و شهدت قصة حبه بالفتاة منذ كنا على تخوم مدينة حلب، و أعرف الفتاة تمام المعرفة.. الفتاة حرّة منذ ولدت..
- إذا لما ادّعت غير ذلك..

لكز عبد الجليل صاحبه ليدخل في الحوار. لم يعرف مجاهد ما الذي ينويه عبد الجليل، لكنه تلعثم قائلا

- كل ما في الأمر هو أنها تراجعت عن الموافقة على الزواج في آخر لحظة. أصابها الحنين إلى حلب و معيشة أهل الشام و لذلك طلبت العودة، لكني رفضت. لذا لجأت إلى حيلتها تلك.
- الخطأ خطؤك أنت.. سحر الشاميات أصاب عقلك بالخبل.

هتف عبد الجليل

- ليس عيبا و لا حراما.. الفتاة فعلا جميلة.. ساحرة بكل معنى الكلمة.. شعر أشقر و عينان زرقاوان و وجه القمر في أتمّ سناه..

ظهر انفعال الغندور بالوصف، لكنه هتف مهوّنا

- البنات الجميلات بالآلاف يا مغفل..
- ليس مثلها أبدا..
- تقول إنها لم تكن من جواري إبراهيم باشا.. إذن ابنة من كانت؟
- ابنة صابر الأحدب، صراماطي حي بانقوسا، أتذكره؟
- نعم، أذكره و أذكر ابنته. حقا كانت باهرة الجمال. لكني أذكر أنها كانت متزوّجة، أليس كذلك؟
- توفّي عنها زوجها قبل رحيلنا بشهر. انتهز مجاهد الفرصة و طلب يدها من والدها. استمهله حتى تتم عدّة الحداد على زوجها، ثم يرسلها إلى مصر بعد ذلك.

ظهر التفكير على وجهه الغندور، في حين نظر مجاهد إلى صاحبه في حنق مصحوب بحيرة، لكن عبد الجليل ربّت عليه مطمئنا. أكمل حديثه إلى الغندور

- حسنا. لما لا تُحضر الفتاة و تأمرها بكشف وجهها. لا شك عندي أنك تذكر تلك الفتاة، كانت آية في الجمال..

كان الغندور مستغرقا في التفكير، عيناه غائمتان و وجهه تعتريه المشاعر. غمغم في شرود

- نعم، كانت كذلك..
- إن كانت هي فعلا، أطلقت سراح مجاهد و أخذتها هي معك..

انتفض الغندور في مكانه و التفت إلى عبد الجليل في شكّ

- آخذها معي بأية صفة؟
- تهدّدها أنها إذا انكشف أمرها أمام السلطات في القاهرة، فإنها سوف تباع في العبودية، و أنها لن تحوّل إلى خدمة الوالي أو إبراهيم باشا كما ترغب. بل ربما أودعت في السجن بضع سنوات جزاء كذبها. اعرض عليها الزواج و ساعتها لن ترفض.

ارتسم الامتعاض جليّا على وجه مجاهد مما رسخ للفكرة في رأس الغندور. قام من مكانه و هتف بالجنود.

- ليصعد إليّ أحدكم بالفتاة..

صعد جندي بالفتاة، ثم عاد أدراجه نازلا. كانت الشمس تكاد تغيب، لكن كان بالسماء ما يكفي من الضوء. وقف الغندور تجاه الفتاة و أمرها

- اكشفي وجهك يا حرمة حتى أعرف شخصيتك؟
- و كيف تعرفني؟
- خدمت في الشام مدة كبيرة و قد أعرفك.
- و ما الذي يجبرني حتى أكشف وجهي؟
- سلطة القانون الذي أمثّله أنا.
- هل لي من بديل أو عذر؟ ألا تعرفون الحياء هنا في مصر؟
- كفّي عن المراوغة و اكشفي وجهك.

عبثت الفتاة في ثيابها لوهلة، ثم كشفت وجهها. تطلّع الغندور في وجهها في عدم معرفة و شكّ..

- إنها لا تشبه ابنة الصراماطي.. عليكم اللعنة، إنها ابنة الطرابلسي..

و من فورها استلّت الفتاة خنجرا من ثيابها و انقضّت على الرجل، لكن عبد الجليل كان أسرع.. إذ انقضّ هو على الصول الغندور ليرمي به بعيدا عن متناولها، ثم لينقضّ عليه بنفسه، كاتما فمه و

أنفاسه بيسراه و جاثما فوق جسد الصول بجسده. كانت يمينه ممسكة بحجر عظيم. طوّح يده وراء ظهره

- إن كان لابد من الانتقام، فلا يجوز أن يتم بطريقة عشوائية.. و إن كان لابد من قتله، فليقتله من تلوّثت يداه بالدماء من قبل.

هوى بالحجر على رأس الرجل مرتين حتى سكنت حركته، و إن لم يتوقف تنفّسه تماما. و دون أن يلتفت إلى صاحبه أو الفتاة، جرّد عبد الجليل الصول فاقد الوعي من ملابسه، ثم خلع ملابسه هو الآخر. حمل الصول فوق كتفه، ثم نزل من التبّة إلى الناحية المواجهة للنهر. هبط في هدوء، ثم غاص بحمله في الماء. ندّت حركات مقاومة ضعيفة فوق سطح الماء، لكنها سرعان ما اختفت. خرج عبد الجليل من النهر، و صعد التبّة مرة أخرى. جفّف نفسه بسرعة و ارتدى ملابسه.

لم يتكلم أحد منهم حتى صعد إليهم أحد الجنود بعد نصف ساعة.

- أين الصول الغندور؟

تولّى عبد الجليل دفّة الحوار في سلطوية. أشار إلى ملابس الصول المكوّمة، ثم إلى النهر

- نزل يستحمّ يا بِلد.
- و تركّكم وحدكم!
- ألا أملأ عينك يا مجنّد؟ هل نسيت أني شاويش في الجيش؟ ثم إن هذا الماثل أمامك باش شاويش..
- لا أقصد يا فندم.. أعتذر. لكن الشمس غابت و يجب أن نتحرك.
- إذن اذهب و نادي عليه من النهر.

أطاع الجندي و نزل ينادي.. و لما لم يجيبه أحد، صرخ طالبا المساعدة من زملائه و من عبد الجليل.

هبطوا جميعا، و نزل منهم من يعرف العوم إلى الماء، و بعد ساعة من البحث عبثا، أخرج عبد الجليل جسد الصول من البقعة التي أغرقه فيها.

وقف الجنود الثلاثة حول النار؛ يرتعشون من البرد قليلا، و من الذعر أضعافا مضاعفة. قرأ عبد الجليل ما في وجوههم و وقف تلقاءهم ليؤكّده لهم. ضرب كفّا بكفّ في حسرة

- ما حدث للتوّ كارثة، توابعها عظيمة.. لا أعرف ما قد يظنون بكم في المركز؟ التهم كثيرة و جاهزة: انعدام انتباه، تواطؤ مع المساجين، خيانة.. محاكمة عسكرية، إعدام.

هتف أحد المجنّدين في رعب

- هل قام أحدكم بقتله؟
- بالطبع لا.. لكنكم تعرفون المركز و شكوكه الدائمة التي لا تنتهي.
- نعرفها. لكنك ستشهد أننا لم نُقصّر.
- ما شأني بكل هذا؟ أنا لم أكن هنا بصفة رسمية.. سأنكر تواجدي أصلا.
- إذا نحن إلى هلاك حتمي..
- الله يكون في عونكم.. العواقب ستكون وخيمة..
- نحن فلاحون غلابة يا حضرة الشاويش.. سمع و طاعة و استسلام.. والله كنا كما الأحذية في قدم الصول.. يمين يمين، شمال شمال..
- أنا أعرف المرحوم جيدا.. كان قاسيا لا قلب له و ما من شك في أنه كان يسومكم العذاب ليل نهار.. لقد فعل مثل ذلك مع من سبقكم و لا شكّ عندي في فعله بكم..
- و مع ذلك سيُنكّل بنا.. هذا و الله حرام..

- المؤسف في الأمر أن المرحوم لا يستحق كل الجلبة التي سيثيرها موته.. صدق القائل: جنازة حارة و الميّت كلب..

ارتفعت الرؤوس ناحيته في شكّ، لكن أحدهم التقط طرف الخيط و هتف دون مواربة

- يلعن روحه الصول الغندور، كان وحشا لا قلب له.. و أيضا، الحيّ أبقى من الميّت..
- حقا.. المرحوم تهوّر و نزل الماء و غرق، و أنتم لا ذنب لكم في شيء..

ثم رفع عبد الجليل عينيه إلى الوجوه المذعورة المتلهّفة

- أظن أن عندي حلا لا بأس به.
- الحقنا به.. نحن في عرضك..
- أجيبوني أولا: هل أتى أمر رسمي للصول الغندور بالقبض على الباش شاويش مجاهد؟
- أبدا.. لقد تحرّك من تلقاء نفسه.. أتتنا الشائعة من أحد أهالي قرية الحمايمة، و كما تعلم المرحوم كان يحب النشاط و أن يُظهر يقظته و إخلاصه الدائمين.. و يبدو أنه كان يكره الباش شاويش مجاهد شخصيا.

- عظيم.. خلاصكم عندي، بشرط أن تنسوا كل ما جرى هذا اليوم.. بكل أحداثه، و كل شخوصه..

تردّد اثنان، لكن الثالث ذو الشخصية هتف

- موافقون

- تقسمون على كتاب الله على كتم سرّ اليوم؟

- نقسم..

و كانت الخطة كالتالي: يعودون إلى وحدتهم، ثم يرسلون إلى المركز في قليوب بالتفاصيل التالية: كانوا في مهمة بحث عن جندي متهرب من الجندية (و هؤلاء أعدادهم بالمئات، و أسماؤهم تملأ عدة دفاتر بالوحدة). أمسكوا به بالفعل، لكنه هرب منهم، و قفز في النيل. قفز الصول الغندور وراءه، لكنه غرق.

و برغم صرامة نظام الباشا و بطشه – كما مثّله الصول الغندور نفسه حتى آخر يوم في حياته - إلا أنه لم ينشئ أبدا إداريين و قادة أذكياء.. و بالطبع انطلت عليهم خدعة الشاويش – قاطع الطريق – عبد الجليل.

****

تحت جنح الظلام، بعد ساعتين من مقتل الصول و على بعد فرسخين من مسرح الجريمة، ترجّل الثلاثة عن خيولهم عند مفترق طرق، تحيط بهم من كل اتجاه حقول شاسعة من القمح الذهبي.. مجاهد و عبد الجليل و ابنة شيخ تجار حمص.

تطلّع مجاهد في امتنان إلى صاحبه

- لماذا قمت أنت بقتله؟ لما تحمّلت وزر القتل؟
- يا صديقي لا الفتاة و لا أنت جربتم القتل من قبل.
- هل تمزح؟ لقد قتلت بضعا و عشرين شخصا على الأقل طوال خدمة الستة عشر عاما.
- ذلك قتل العدو.. القتل بالوكالة و القتل بالتصريح. أما قتل الشخص بدم بارد فذلك ما لا أرجوه لك يا صديقي. ليال لا تنتهي من الأرق و الندم. حتى بالنسبة لقاطع طريق مثلي، كانت كل جريمة قتل جديدة تؤرّق ضميري لفترة طويلة قبل أن أنساها بفضل الجريمة التي تليها.
- لكن..
- .. بحكم خبرتي أيضا استطعت أن أنفّذ القتل ببراعة لم تكونا لتقدرا عليها أبدا.

- أعترف لك بذلك..

صافح مجاهد صاحبه في حرارة.

- أراك في المعسكر قريبا.

- لا، لن نلتقي في الميري بعد الآن.

حملق فيه مجاهد مذهولا

- لماذا؟

- السبب في تأخّري في الحضور إليك لم يكن رفض القائد إعطائي الإجازة، بل لإتمام إجراءات إنهاء خدمتي.

- لماذا أنت بالذات؟

- لست وحدي، بل أنت كذلك.. بل و أكثر من نصف القوة تم إنهاء خدمتها. هذه من نتائج معاهدة الباشا مع الإنجليز. سيتم تخفيض الجيش إلى ثمانية عشر ألف فرد فقط.

هتف مجاهد في صدمة

- انتهي الجيش! انتهت خدمة الميري!

- نعم.. عند عودتك للوحدة ستُسلِم مهماتك و عهدتك العسكرية، بعدها سيمنحونك نيشانا و ميدالية فضية.

- ستة عشر عاما من الخدمة الممتازة و الطاعة العمياء جزاؤها نيشان و ميدالية!

- و مكافأة جنيها و بضعة قروش فضة..

كانت ضربة مفاجأة لمجاهد أفقدته توازنه تماما. صافح صاحبه مرة أخرى، لكن هذه المرة و هو يقاوم دموعه

- و كيف أراك بعد الآن؟

- سأعود إلى بلدتي و معارفي لبعض الوقت..

مسح مجاهد عينيه و حملق في صاحبه مستنكرا

- معارفك؟ و هل لك من معارف إلا أصحاب السوء؟ هل ستعود إلى حياة الإجرام مرة أخري؟ إيّاك يا عبد الجليل..

- لماذا؟

- ألم تغيّر سنين الجيش فيك أي شيء حقا؟

- لم أتعلم من مؤسسة الجيش شيئا واحدا ذا قيمة.. فقط جروح أكثر و حكمة أعمق، غير ذلك لا أظن.. كنت أعيش لنفسي و لازلت أعيش لها.

- بل تعلمنا الفداء و التضحية و فعل الخير للصالح العام.. ألم نعرّض أرواحنا للتهلكة فداءً لبعضنا البعض في المعارك و

المناوشات؟ من أجل أهالينا من ورائنا؟ بل و من أجل الخير المطلق في كثير من الأحيان..

- تلك رسائل الجيش التي كانوا يحاولون إقناعنا بها طوال الوقت، لكن خبرتي القاسية في الحياة حصّنتني من الخدع الرخيصة..

- كنا نحارب دوما آملين في الأفضل، جهادا في سبيل الله، و من أجل إعلاء كلمة الحق..

- حتى أنت كففت عن تصديق كلامهم هذا منذ وقت بعيد.

- لا شأن لي بغايتهم.. كانت أتناساها و أضع نيّتي نُصب عيناي.

ضحك عبد الجليل

- أتدري يا مجاهد؟ الجهادية لم تغيّرني على الإطلاق، كما لم تغيّرك أنت أيضا على الإطلاق..

- كيف ذلك؟

- أنت إنسان شديد الطموح و الخيال و التمنّي.. آمالك و طموحاتك غالية عالية، بعيدة المنال.. أجزم أنك كنت كذلك قبل دخول الجيش و لا تزال على تلك الحال حتى الآن.. لم تغيّر الجهاديّة فيك شيئا..

- كنتُ و لا زلت أنشد أفضل الأوطان.. وطنا يجتمع تحت لوائه أبناء وطني و ملّتي، بل و كل سكان الأرض إن أمكن.. يعيشون عيشة هنيّة، بكرامة و رغد، أبناؤهم متعلّمون و حضارتهم راقية عالية و تسري على الجميع شريعة السماء السامية..

- لا، أنت لا ترغب في ذلك فقط..

- حقا، إذا بماذا أرغب؟

- ترغب في أن تكون الشخص الذي يحقّق كل ذلك بنفسه..

- رغم أنى لا أعرف كيف توصّلتَ إلى ذلك الاستنتاج، لكن لا بأس، لن أجادلك.. فقط أخبرني ما العيب في رغبتي في أن أكون ذلك الشخص الذي يقيم وطنه و قومه من عثرتهم؟

هزّ عبد الجليل رأسه حرجا

- للأسف، لست ممن يصلون لهذه الغاية الأسطورية - بعيدة المنال - يا صاحبي..

تطلّع مجاهد إليه في حنق

- لماذا؟

- أتعرف يا صاحبي؟ البطل الصاعد لقمّة المجد لا يعوقه بُعد القمة و علوّها و لا وعورة الطريق.. يعوقه فقط الأغلال التي تطوّق ساقيه..

- الأغلال؟

- نعم.. أغلال المجتمع و الحكومة التي يرغب أمثالك في رضاهم دوما و أبدا، بقصد و بغير قصد.. أغلال المُثل العليا و الالتزام بالقوانين و المبادئ التي وضعتها لك الحكومة و المجتمع..

- يستطيع الإنسان أن يفعل كل ما يريد دون أن يتنازل عن المبادئ الأساسية..

- قل ما شئت.. أما أنا فأقول لك الحقيقة باختصار.. المثاليون من أمثالك لا يصلون للقمم أبدا، لأن المسافة التي يقطعها الطموحون نحو القمم تختلف بحسب ثقل الأغلال التي يجرّونها خلفهم.. إن خفّ وزن الأغلال انطلقوا يركضون، و إن ثقلت تراهم ثابتين مكانهم لا يتحركون. هذه الأغلال تبدو في ظاهرها حملا ضروريا من القيم و الأخلاق و الضمير، لكنها بالأساس القواعد التي وضعها لك المجتمع و السلطة حتى لا تصل لمبتغاك أبدا.. ذلك لأن هؤلاء لم يضعوا تلك القواعد و

الاشتراطات من أجلك و من أجل هدفك، بل حتى لا يتهدّم الكيان الذي يحافظ على العالم من وجهة نظرهم.. المواطن المثالي مجبر على تحقيق المطلوب منه - من وجهة نظر أهله و الناس و المجتمع و الحكومة.. يلتزم بتقاليد الأسرة و المجتمع و يلتزم بالقوانين التي تسنّها السلطة.. المشكلة التي تنغّص عيش هذا الشخص الطيب المثالي هي رؤيته و إدراكه للعيوب و النواقص في كل ما حوله، و شعوره بالمسئولية عن إصلاحها كلها بنفسه.. لكنه، بتقيّده بالقوانين و القواعد، لا يستطيع أبدا أن يحقق ذلك. شخص بهذه 'المثالية' لا يستطيع إلا أن يصير إلى ما صرت أنت إليه بالضبط: باش شاويش في جيش الوالي أو عمدة على قرية - مجرد موظف مطيع مثالي في حكومة الباشا، و بالطبع رب أسرة صالح ينجب أبناءً 'مثاليين' مثله.

- تبّا لك.. أليس لي عندك من خيارات أخرى؟
- إذا أردت أن تصل لأبعد القمم فلتكن متمرّدا لا قلب و لا أخلاق له، لا يتوقّف عند حاجز، مثل نابليون إمبراطور الفرنسيس.. أو مثل الباشا..
- و الأخلاق و الدين؟

- إذا فضّلت الأخلاق و المبادئ السامية 'الحقيقية' المطلقة، فاتّخذ لنفسك ديرا في الصحراء، تزهد و تتعبّد لله فيه ما بقي من عمرك..

دفع مجاهد صاحبه في صدره ليبعده هو و أفكاره الخبيثة بعيدا

- كلامك هراء.. التاريخ ملئ بالأمثلة الطيبة للقادة العظام الذي استطاعوا أن يبلغوا الحُسنيين.. شيوخ الأمم و علماؤها ملأوا لنا كُتبا تذكر لنا هؤلاء القادة العظام بكل خير..
- الشيوخ يخضعون للحكّام و يبرّرون افعالهم.. كالحواة يخرجون من جعبتهم الألاعيب و الحيل المناسبة لتبرير أفعال ولاة الأمور. تماما مثلما حدث معنا، مرة نحارب مع السلطان محمود الثاني في المورة لأنه خليفة المسلمين، ثم نحاربه في الشام لأنه مارق من الدين، و هكذا دواليك. أما من لا يخضع من الشيوخ و العلماء، فتخفيهم السيوف و المشانق و صفحات الكتب.. التاريخ يكتبه المنتصرون. اسمع كلماتي و احفظها جيدا.. رغم إخفاقنا العظيم في الشام آخر المطاف، فسيُخلّد الباشا الوالي و أولاده في التاريخ كأبطال عظام طالما استقرّ

حكمهم في مصر.. أما إذا تغلّب عليهم العثمانيون، فسيتحولان في غمضة عين إلى شياطين مردة.

- إذا كُنت أنا ذلك المأفون، الذي لا يعرف أن يوازن بين طموحه الجامح و مُثله العليا، فمن أنت؟
- أنا شخص بسيط واضح مع نفسي منذ وعيت على الدنيا يتيما منبوذا، و إلى آخر المطاف.. أهدافي الدنيوية واضحة قريبة المنال و أحمالي الأخلاقية خفيفة و محدودة. أرغب من الدنيا مباهجها المعتادة: الصحة الجيدة، الطعام اللذيذ و الشراب الحلو، المرأة الجميلة، الصحبة الممتعة، و المكانة المتميزة بين الأهل و الرفقاء.. و في مقابل ذلك، لا أرتدع إلا بقوانين أخلاقية معدودة - لكنها واضحة و راسخة - مثل الرحمة و الشهامة و الرجولة.
- ألا تهفو نفسك للخير؟ ألا تتخيل نفسك في آخر العمر، جالسا في عجزك تتذكر أعمالك الطيبة؟
- بالطبع، و لذلك أقوم بالأعمال الطيبة بين الحين و الآخر.. مثلما فعلت للتوّ معك و مع حبيبتك السورية.. أُصلي أحيانا، أصوم كل رمضان، بل و أنوي الحج في يوم من الأيام.
- كيف يستقيم ذلك؟

- يستقيم جدا.. أنا إنسان يفكر في نفسه بالأساس و لا أخدع نفسي بغير ذلك.. أفعل كل ما يسعدني في الحياة، لكني لا أغلق الباب بيني وبين الله أبدا.. بل من يدري فلربما جاءت الفرصة لأستشيخ في آخر العمر. لكني لو فعلتها فسأفعلها لنفسي فقط، خوفا عليها من مصير مُظلم في الحياة الأُخرى..
- نفسك و من بعدها الطوفان..
- نعم و لا.. أستفتي قلبي و أفعل ما أراه صوابا..
- العقل و القلب يخطئان على الدوام..
- إن لم أثق بقلبي و عقلي، ففيمن أثق؟
- عليك اللعنة.. كفاك سفسطة و ادّعاء الحكمة. و الله لم أكره صحبتك يوما كما أكرها الآن..
- سلام يا صديقي..
- غور في ستين داهية..

ابتسم عبد الجليل في أسى، ثم ركب حصانه. لوّح لصاحبه مودّعا، ثم انطلق دون انتظار ردّ منه.

شيّع مجاهد صاحبه السابق بنظرات ملؤها الحنق و الضيق. لكنه قرّر على الفور رمي كل ذلك وراء ظهره، و أن يلتفت لحياته الجديدة ما بعد الجيش.. ليستعدّ لعمودية القرية و للزواج من حبيبته.

التفت للحسناء السورية من ورائه، ليفاجأ بتمترسها خلف برقعها مرة أخرى!

قال مجاهد في قلق

- ماذا الآن؟

طأطأت رأسها و همست

- لو أردتني زوجةً لك أجرا على حُسن صنيعك، لا أجرؤ على الرفض..

أصابه الذعر

- أنا أحبك و أنت أخبرتني أنك..
- لم اقل يوما أني أحبك.
- أنتِ وعدتني..

- لو أصررت على الزواج، فعليك الانتظار حتى أكفّر أولا عن قسمي بألا أتزوج رجلا من جيش إبراهيم باشا – جيش الجبّارين الذي قتل أبي و أهان عائلتي..

صرخ مجاهد

- ليسوا كلهم كذلك.. و حتما لست أنا كذلك..
- ليس بيدي.. أكرهم جميعا..
- ثم أنك أنتِ من دعوتني بالأساس و تعرفين من أنا و ماذا أعمل.. طلبتي مساعدتي و لم أتأخر..
- طلبت مساعدتك في القصاص لأبي، الذي كنت أنت سببا في قتله..

ضرب مجاهد يده برأسه من الصدمة

- و الله ما كنت سببا في قتله..
- كيف لا و الميرالاي لم يأمر بقتل والدي إلا لأنه أكرمك في الرفض كما لم يكرمه هو..
- و هذا يجعلني سببا في قتله؟!

أشاحت بوجهها في قرف

- و ماذا تريد مني الآن؟
- لا أريد إلا أن أكون زوجا لك باختيارك..
- انظر يا باش شاويش مجاهد، إذا ما تم هذا الزواج غصبا، سيكون لك حق علي جسدي، لكنك لن تقدر أبدا على فرض نفسك على قلبي و روحي..

مادت الأرض تحت قدميّ مجاهد و أصاب رأسه الدوّار من الصدمة. ما معنى هذا الكلام؟ لقد خدعته الفتاة و استدرجته حتى اقتصّت لوالدها، و الآن تتملّص من وعدها له بالزواج!

ماذا عساه يفعل الآن؟ هل يُكرهها على الزواج و الحق معه وقتئذ مئة في المئة؟ لكن كيف تراه يعيش مع امرأة أعلنت له الكره منذ اللحظة الأولى؟

قالت مبرّرةً فعلها

- أعذرني.. لقد أصبحت بالرغم مني أكره كل المصريين..
- لا تهيني كرامتي و ذكائي يا مغفلة.. ليس للأمر علاقة بكوني مصري أو دون ذلك.. لقد طلبتي مساعدتي و وعدتني بالزواج منذ البداية و أنت تعرفين أني مصري..

- لكني لم أحبك و لم أعدك بالحب قط.. لقد فعلت أنت ما فعلت بمحض إرادتك..

- و هل للمحبّ من إرادة تلقاء محبوبه؟

- ليس هذا من فعلي.. إنها تصاريف القدر..

- و هل من تصاريف القدر احتيالك عليّ و استغلال مشاعري نحوك؟

ردّت في عناد

- لا داعي لكلمات لا طائل من ورائها.. أنت قدّمت لي خدمة و أنا على أتمّ الاستعداد لدفع الثمن.. لكني أكرّر، لن أمنحك قلبي قط

لكن الهزيمة ظهرت جليّة في صورة دموعها المحبوسة. لانت كلمات مجاهد و قد آلمه أن تنكسر حبيبته أمامه

- كلماتك صادرة عن امرأة مضطرة لإظهار الامتنان و العرفان نحوي.. كرامتك تمنعك من نكران جميلي، لكن قلبك يمنعك من التسليم لي.. أنتِ لا تستطيعين أن تمنحيني قلبك، لأن ثمّة شخص آخر يقبع فيه..

خفضت رأسها لتتفادى عينيه

- منذ الصبى، و أهلنا متواعدون على زواجنا، أنا و ابن عمي..
- و لما لم يساعدك هو في القصاص لوالدك؟
- هرب من التجنيد الإلزامي الذي فرضه جيشكم و هرب إلى أغوار الأناضول منذ سنين طويلة.. لم أُرسل إليه بخبر مقتل أبي.. أخبرته كذبا بأن وفاته كانت وفاة طبيعية.
- لماذا؟
- ابن عمي حامي الدم و متهوّر، و لربما لقي حتفه من التسرّع قبل أن يصل لقاتل أبي.
- ..و لأنك تحبينه، لم ترغبي في تعريض حياته للخطر..

هزّت رأسها في قوة

- أجل..

أحسّ مجاهد نفسه أضعف ما تكون. لقد خسر حياته العسكرية و حب حياته في يوم واحد، بل في ساعة واحدة.. و ليس بوسعه فعل شيء. لم يكن قادرا على المقاومة. استغفر الله في سره ثم هتف

- من أكون حتى أفرض نفسي على ذرّة من ذرّاتك.. أنت حرّة متى شئتي و كيف شئتي.. اذهبي إلى ابن عمك و ليهنأ بك و لتهنئي به.

هتفت الفتاة في حماس

- إن هذا من حسن خلقك و كريم خصالك.. سيجازيك الله خير جزاء.. سيعوّضك مالا و زوجة و أولادا..

و دونا عن كل كلماتها المتعالية المفعمة بالكره، كانت دعواتها تلك لطمة مُهينة لا يقدر على تحمّلها أبدا. استحال انكساره و حزنه العميق إلى غضب عارم. دار نحوها يزمجر و هو يصرخ

- كفاك استحمارا لي و ترضية لضميرك.. لست بحاجة لأوسمة الجيش و لا لكلماتك المتملقة لتغمصوني حقي بعد التضحيات الكبرى التي فعلتها من أجلكم.. الأوسمة البرّاقة و كلماتك المعسولة المتملقة لا هدف لها إلا إسكاتي حتى أرضي بما أصابني.
- نحن مأمورون بالرضى..

- فهل رضيتي أنت عندما قتل أبوكي، و هل رضيتي و تزوجتني كما كان الاتفاق؟ كلا، لم ترضي. إذا فلتخرسي و لا تزيدي بكلمة واحدة و إلا تركتك وحدك في الخلاء لتنهشك الذئاب.

و دون أن تنبس بحرف آخر، تبعته حتى عاد بها إلى مخيّم الاعراب. و دون أن يدخل، رمى بها من فوق صهوة الحصان إلى الأرض في غضب، ثم قذفها بأجرة رحلة الرجوع إلى بلدها.

في طريق عودته ترك مجاهد جواده على قارعة الطريق دون أن يربطه، ثم دلف إلى أعماق حقل قمح مترامي الأطراف، ليختبئ من عيون العالم و آذانه. افترش الأرض و تطلّع إلى السماء الظلماء و نجومها الصمّاء، ثم أخذ يبكي في حرقة حتى جفت عيناه من الدموع تماما.

طلعت عليه الشمس و لم يزل في حزنه و حسرته.

القراء الأعزاء،

لقد انتهى النص بوصولكم إلى هذه النقطة، لكن رحلة هذا العمل لا تكتمل دون ارائكم الثمينة.

يُسعدني مروركم الكريم على موقع جود ريدز

Goodreads.com/جندى_في_جيش_الباشا

او زيارة صفحتي على الفيس بوك

Facebook.com/M.Maarouf.Author

او التواصل عبر البريد الالكتروني

maarouf.author@outlook.com

تحياتي،

محمد معروف